الاهتمام بسلامة المسلمين

يؤكّد ما قلناه آنفًا، هو فرض صلاة الخوف لحماية المسلمين من هجوم العدوّ عليهم وهم في صلاتهم، بمعنى آخر: إنّ سلامة المسلمين والحفاظ على حيواتهم لها أهميّة قُصْوى عند الله سبحانه وتعالى وعند رسوله صلّى الله عليه وسلّم تفوق أهميّة العبادة، وها هو الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم يناشد ربَّه في معركة بدر بقوله: (اللَّهُمَّ! إنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصابَةُ لا تُعْبَدْ في الأرْضِ.)[٣٣٥]

وقال سبحانه وتعالى مؤكّداً أهميّة حياة الإنسان: (مِنْ أجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إسْرائيلَ، أنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أوْ فَسادٍ في الأرْضِ، فَكَأنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً، وَمَنْ أحْياها فَكَأنَّما أحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً.) (المائدة ٣٢/٥)

وهذا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعبِّر عن أسفه لفقدان رجال من المسلمين في الفتوحات ضدّ الفرس بالبكاء الشديد، عندما أخبره السائب بن الأقرع عن شهداء معركة نهاوند مع الفرس يبكي بكاءً شديداً.

"قال عمر: ما فعل النعمان بن مُقرِّن. قائد جيش المسلمين؟ فقال السائب: استُشهد يا أمير المؤمنين. فبكى عمر، ثمّ قال: يرحم اللهُ النعمانَ، ثلاثاً. ثمّ قال: مَه! قال: لا، والّذي أكرمك بالخلافة وساقها إليك! ما قُتِلَ بعد النعمان أحد نعرفه. فبكى عمر بكاء شديداً، ثمّ قال: الضعفاء! لكنّ الله أكرمهم بالشهادة وساقها إليهم، أدفنتم إخوانكم؟ لعلّكم غُلِبتم على أجسادهم، وخلّيتم بين لحومهم والكلاب والسباع! أخشى أن يكونوا أصيبوا بأرض مضيعة.

قال السائب: هَوِّنْ عليك يا أمير المؤمنين! فقد أكرمهم الله بالشهادة وساقها إليهم. ثم قال عمر: أعطيت كلَّ ذي حقٍّ حقَّه؟

٣٣٥ــ ابن كثير، الفصول، ص ١١٩.

فقال: نعم.

فنفض عمر رداءه ثمّ ولّى باكِياً."[٣٣٦]

وهذا عمر بن عبد العزيز، الخليفة الأموي، يأسف لموت رجل واحد من المسلمين في إحدى الغزوات ضدّ الروم، ويعتبره أحبّ إليه من الروم وما حَوَتْ.

"بعث جَعْوَنَةُ بن الحارث رسولاً إلى عمر بن عبد العزيز، وكان عاملاً له على غزاة، فقال له عمر: أسَلِمَ المسلمون؟ قال: نعم. قال: كلّهم؟ قال: نعم، إلاّ رجلاً واحداً عدلت به دابَّته فساح في الثلج.

قال: فصنع ماذا؟ قال: فهلك. قال عمر: لقد أطلقتها غير مكترث، عليَّ بفلان ـ كاتبه ـ فكتب إلى عامله: إيّاك وغارات الشتاء! فوالله! لرجلٌ من المسلمين أحبُّ إليَّ من الروم وما حَوَتْ."[٣٣٧]

مرّة أخرى نجد عمر بن عبد العزيز يعطي اهتماماً زائداً للمسلمين وسلامتهم لا فرق بين رجل وامرأة، وحرّ وعبد، مهمّا كلّف الأمر، فها هو يقول لممثّله في فداء الأسرى المسلمين من أيدي الرّوم: "أعطهم بكلّ مسلم ما سألوا."

قال عبد الأعلى بن أبي عمرة الشيباني: "لمّا بعثني عمر بن عبد العزيز لفداء أسرى القسطنطينيّة، قلت: أرأيتَ إنْ أبَوْا أن يُفْدوا الرجل بالإثنين؟

قال: فأعطهم ثلاثة.

قلت: فإن أبَوْا إلاّ أربعة؟

قال: فأعطهم بكلّ مسلم ما سألوا، فوالله! للرجل من المسلمين أحبُّ إليَّ من كلّ مشرك عندي، إنّك ما فديت به المسلم فقد ظفرت، إنّك إنّما تشتري الإسلام.

قال: فقلت له: أرأيت إن وجدتُ رجالاً قد تنصَّروا، فأرادوا أن يرجعوا إلى الإسلام أفديهم؟

قال: نعم، بمثل ما تفدي به غيرهم.

قال: فقلت له: أرأيت إن وجدت امرأة قد تنصَّرت، فأرادت أن ترجع إلى الإسلام؟

٣٣٦ــ ابن حبان، السيرة، ص ٤٨٩.

٣٣٧ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ٤، ص ١٠٣.

قال: إفدها بمثل ما تفدي به غيرها.

قال: فقلت له: أفرأيت العبيد، أفديهم إذا كانوا مسلمين؟

قال: نعم، بمثل ما تفدي بهم غيرهم.

قال: قلت: أرأيت إن وجدت منهم من قد تنصَّر، فأراد أن يرجع إلى الإسلام؟

قال: اصنع بهم مثلما تصنع بغيرهم.

قال: فصالحتُ عظيمَ الروم على رجل من المسلمين برجلين من الروم."[٣٣٨]

---

[٣٣٨]ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٤، ص ص ١٤٥-١٤٦.

إحدى الحُسْنَيَيْن: النَّصْرُ أو الشَّهادة

قال الله سبحانه وتعالى: (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بنا إلاّ إحْدَى الْحُسْنَيَيْن.) (التوبة ٥٢/٩)

هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن الكريم، كانت شعار المسلمين في جميع معاركهم وحروبهم التي خاضوها مع أعداء الله وأعدائهم.

كلا الخيارين في هذه الآية الكريمة حسن وفيه خير كثير، لأنّ الحسنيين هما: النصر والشهادة.

النصر يأتي بخير الدنيا، والشهادة تأتي بخير الآخرة، وهذا من كرم الله ومنّه على عباده من المؤمنين الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَّنْ قضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ، وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً. لِيَجْزِيَ اللهُ الصّادِقِينَ بصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إنْ شاءَ أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَّحِيماً.) (الأحزاب ٢٣/٣٣)

وجزاء المجاهد الصادق عند الله هو الجزاء الأوفى، وليس عند الله أعظم أجراً من أجر الشهيد الّذي منحه الله سبحانه وتعالى إيّاه، وهو الحياة الأبديّة، حياة النّعيم المقيم، النعيم الّذي لا يخطر على قلب بشر، وأعلمنا الله سبحانه وتعالى بذلك بقوله: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أمْواتاً بَلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فرحِينَ بما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألاّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجْرَ الْمُؤْمِنِينَ.) (آل عمران ١٦٩/٣-١٧١)

وقال سبحانه وتعالى أيضاً في هذا الشأن: (وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سَبيلِ اللهِ أمْواتٌ بَلْ أحْياءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ.) (البقرة ١٥٤/٢)

وفي الآيات الكريمة التالية فصّل الله لنا بعض الشيء الجزاءَ والنعيمَ الّذي وَعَدَه للمؤمنين المجاهدين في سبيله، وما لم يخبرنا الله سبحانه وتعالى أعظم وأكثر ممّا أخبرنا عنه، لأنَّ نعيم الآخرة لا يشبه نعيم الدّنيا، ولا نستطيع تصوَّره بعقولنا الدنيوية الماديّة القاصرة لو أنَّ الله سبحانه وتعالى أخبرنا عنه: (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا! هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَتُجاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُم. ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً في جَنّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.) (الصَّفّ ٦١/١٠-١٣)

والآيات في هذا الشأن كثيرة مشهورة، ومن أراد المزيد منها، فليدرس القرآن، ويتدبَّره.

أمَّا الأحاديث النبويّة الشريفة في فضل الجهاد والشهادة، فهي أكثر من أن تحصى، ننقل إليكم بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر.

عن أبي ذرّ، رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله! أيّ العمل أفضل؟

قال: (الإِيمانُ بِاللهِ، وَالْجِهادُ في سَبِيلِهِ.)[٣٣٩]

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مؤكّداً فضل الجهاد: (وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزُوَ في سَبِيلِ اللهِ، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ.)[٣٤٠]

وغزا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وجاهد بماله ونفسه. إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غزا تسع عشرة غزوة، وجرح صلّى الله عليه وسلّم في إحداها، وهي معركة أُحُد.

وقال صلّى الله عليه وسلّم: (وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! ما مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ[٣٤١] في سَبِيلِ اللهِ إِلاّ جاءَ يَوْمَ القِيامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكٍ.

٣٣٩ــ رواه البخاري ومسلم؛ أنظر النووي، رياض الصالحين، ص ٤٩٧، حديث ١٢٨٥.

٣٤٠ــ رواه البخاري ومسلم؛ أنظر النووي، رياض الصالحين، ص ٤٩٩، حديث ١٢٩١.

وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لوْلا أنْ أشُقَّ عَلى المُسْلِمِينَ ما قَعَدْتُ خِلافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو في سَبيلِ اللهِ أبَداً، وَلَكِنْ لا أجِدُ سَعَةً فَأحْمِلُهُمْ، وَلا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أنْ يَتَخَلَّفوا عَنِّي.)[٣٤٢]

ليس هناك عملاً يعمله المسلم يعدل الجهاد، كما روى البخاري: "أنّ رجلاً قال: يا رسولَ اللهِ! دُلَّني على عملٍ يَعْدِلُ الجِهادَ!

قال: لا أجِدُهُ.

ثمّ قال: هَلْ تَسْتَطِيعُ إذا خَرَجَ الْمُجاهِدُ أنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلا تُفْطِرَ؟

فقال الرجل: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذٰلِكَ؟"[٣٤٣]

وبيَّنَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أجر المجاهد عند الله في الآخرة، بقوله: (إنَّ في الجَنَّةِ مائةَ دَرَجَةٍ أعَدَّها اللهُ لِلْمُجاهِدِينَ في سَبيلِ اللهِ ما بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَما بَيْنَ السَّماءِ وَالأرْضِ.)[٣٤٤]

قبلَ المسلمون هذا العرض الكريم السَّخيَّ من الله سبحانه وتعالى بطيبة نفس، وتسابقوا على تحقيقه، قادة وجنوداً، بدءً برسول الله صلّى الله عليه وسلّم الّذي شارك في تسع عشرة غزوة إلى آخر جنديّ في صفوف المسلمين، وكان قادة جيوش المسلمين على رأس جيوشهم، ودائماً في المقدِّمة، ففي معركة مؤتة مع الرّوم استشهد القوّاد الثلاثة للجيش المسلم، وهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، واحداً تلو الآخر. وفي معركة الجِسْر ضدّ الفرس استشهد القائد المسلم أبو عبيد الثقفي، وغيرهم من القادة المسلمين الّذين فدَوا جنودهم بأرواحهم كثيرون.

٣٤١ــ أي ما من جُرْحٍ يُجْرَح.

٣٤٢ــ رواه البخاري ومسلم؛ أنظر النووي، رياض الصالحين، ص ٤٩٩، حديث ١٢٩١.

٣٤٣ــ النووي، رياض الصالحين، ص ٥٠١، حديث ١٢٩٦.

٣٤٤ــ رواه البخاري؛ أنظر النووي، رياض الصالحين، ص ٥٠١، حديث ١٢٩٨.

وفي معركة مؤتة نرى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يشجِّع المسلمين على القتال، وكانوا ثلاثة آلاف جندي عندما لاقوا الروم الّذين كانوا مائة ألف بقوله: "يا قوْمِ! وَاللهِ! إنَّ الَّتي تَكْرَهُونَ هِيَ الَّتي خَرَجْتُمْ مِنْ أجْلِها، الشَّهادَة. وَلا نُقاتِلُ النّاسَ بعَدَدٍ ولا قُوَّةٍ، إنَّما نُقاتِلُهُمْ بهَذا الدِّين الَّذي أكْرَمَنا اللهُ بهِ، فانْطَلِقُوا، فإنَّما هِيَ إحْدَى الحُسْنَيَيْن: إمّا ظُهُورٌ، وإمّا شَهادَةٌ."[٣٤٥]

وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كلّ يوم بصِفَّين حتّى يقف بين الصَّفَّيْن، ويقول:[٣٤٦]

أيَّ يَوْمَيَّ مِنَ الْمَوْتِ أفِرّ ... يَوْمَ لا يُقْدَرُ أوْ يَوْمَ قُدِرْ
يَوْمَ لا يُقْدَرُ لا أرْهَبُه ... وَمِنَ الْمَقْدُور لا يُنْجِي الْحَذَرْ

وقال خالد بن الوليد، سيف الله المسلول رضي الله عنه: "ما أدْري مِنْ أيِّ يَوْمَيَّ أفِرُّ؟ يَوْمَ أرادَ اللهُ أنْ يُهْدِيَ لي فيهِ شَهادَةً، أوْ يَوْمَ أرادَ اللهُ أنْ يُهْدِيَ لي فيهِ كَرامَةً."[٣٤٧]

رحم اللهُ خالداً بن الوليد ورضي عنه وأرضاه، إنّه اعتبر الشهادة هديّة من الله سبحانه وتعالى، واعتبر النصر كرامة.

وهل يوجد في هذه الدنيا شيء أفضل من هديّة من الله سبحانه وتعالى؟

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (إنَّ أبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ.)

هذا الحديث الشريف دفع المسلمين إلى خوض المعارك الضارية مع أعدائهم والظفر في جميع هذه المعارك، فمنهم من فاز بالشهادة، ونتيجة لذلك فاز المسلمون بالكرامة، كرامة النصر.

وما أن سمع رجل من عرض المسلمين هذا الحديث الشريف حتى سارع إلى خوض غمار المعركة إلى أن فاز بالشهادة، كما يُروى عن أبي بكر بن أبي موسى

٣٤٥ــ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٧؛ ابن حبان، السيرة النبوية، ص ٣١٨.

٣٤٦ــ ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج ١، ص ١٠٥.

٣٤٧ــ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٣٧٥؛ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ٨، ص ١٦.

الأشعري، قال: "سمعت أبي وهو بحضرة العدوّ يقول: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (إنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ.) فقام رجل رثُّ الهيئة، فقال يا أبا موسى! أنت سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول هذا؟ قال: نعم.
فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام. ثمّ كسر جفن سيفه، فألقاه، ثمّ مشى بسيفه إلى العدوّ، فضرب به حتى قُتِلَ."[٣٤٨]

وفي سَرِيَّة بئر معونة، قُتِلَ حرام بن مِلْحان، قتله جبّار بن سُلْمى. وكان سببُ إسلامه، أي إسلام جبّار القاتل، كلمة قالها حرام وهو يجود بنفسه. يقول جبّار: "إنّ ممّا دعاني إلى الإسلام أنّي طعنت رجلاً منهم (أي من المسلمين) يومئذ برمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره، فسمعته يقول: فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ!
فقلت في نفسي: ما فاز؟ ألست قد قتلت الرجل؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله.
فقالوا: الشهادة.
فقلت: فاز لَعَمْرُ الله! فكان سبباً لإسلامه."[٣٤٩]

والحوار التالي بين عمر بن الخطاب وابنه عبد الله حين رجع من معركة اليمامة ضدّ مسيلمة الكذّاب. _وفي هذه المعركة استشهد زيد بن الخطاب، أخو عمر بن الخطاب، وكان عمر يحبّ أخاه زيداً كثيراً_ يرينا مدى حرص المسلمين في تلك الأيام على الفوز بالشهادة.
"قال عمر لابنه عبد الله حين رجع: ألا هلكت قبل زيد! هلك زيد وأنت حيٌّ!
فقال: قد حرصت على ذلك أن يكون، ولكنَّ نفسي تأخَّرت، فأكرمه الله بالشَّهادة.
وقال سهل: قال عمر: ما جاء بك وقد هلك زيد؟ ألا واريت وجهك عنّي!
فقال عبد الله: سأل الله الشَّهادة فأُعطيها، وجَهدتُ أن تُساق إليَّ فلم أُعْطها."[٣٥٠]

٣٤٨ــ ابن بطة، كتاب الجهاد، ص ٢٧.

٣٤٩ــ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٨٧؛ البخاري، صحيح، باب غزوة الرجيع؛ الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٧٥.

٣٥٠ــ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٢٩٢.

وأكثر من هذا، ما فعله عبد الله بن أم مكتوم، الأعمى، الّذي أعفاه الله وأمثاله من الجهاد، بقوله جلَّ وعلا: (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً.) (النساء ٤/٩٥)

إن ابن أم مكتوم، الأعمى، الّذي نزلت فيه: (غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ)، خرج مجاهداً في سبيل الله، وشارك في معركة القادسية، وكان يقول: "إدفعوا إليَّ اللّواء! فإنّي أعمى لا أستطيع أن أفرَّ، وأقيموني بين الصَّفّيْن."

وقال أنس بن مالك: "كان مع ابن أمّ مكتوم يوم القادسيّة راية ولِواء."[٣٥١]

٣٥١ــ الدياربكري، تاريخ الخميس، ج ٣، ص ٢٤٦.